السماع : موضوع ملتقى دولي بتلمسان

أ/ بوطيبة عبد القادر*

"تصوف، ثقافة، موسيقى" موضوع ملتقى دولي انعقد تحت الرعاية السامية لرئيس الجمهورية بمدينة تلمسان في الفترة من 12 إلى 16 نوفمبر 2005.

ألقى وزير الشؤون الدينية والأوقاف السيد أبو عبد الله غلام الله كلمة رئيس الجمهورية التي كانت كلمة عميقة المعاني غزيرة الدلالات وثيقة الصلة بموضوع الملتقى. فيها كثير من تعابير المتصوفة ومصطلحاتهم وفيوضاتهم. وأشارت وزيرة الثقافة السيدة خالدة تومي باعتبارها الشريك في تنظيم الملتقى، إلى أهمية التصوف كجزء من الثقافة العالمية مؤكدة "أن البعد الروحي هو الذي يوحد الشعب الجزائري" وجاءت كلمة والي ولاية تلمسان علمية أكثر منها ترحيبية حيث قال "إن التصوف مقترن

*. كاتب صحفي.

بكل ما هو جميل" قبل أن يسهب في الحديث عن كبار رجال التصوف من أمثال ابن عربي وابن سبعين وأبي مدين شعيب.

ونقل السيد منير بوشناقي ممثل المدير العام لليونسكو اعتزاز هذا الأخير بزيارته للجزائر وضيافة الشيخ محمد غافور أحد رواد الموسيقى الأندلسية في بلادنا. له في بيته لما زار المدير العام لليونسكو الجزائر.

وقال : إن هذا اللقاء يأتي ضمن أفق التحضير لإجتماعين هامين قادمين لوزاراء التربية والثقافة في الجزائر تمهيدا للقمة الإفريقية حول الثقافة والتربية.

وكشف ممثل مدير اليونسكو الذي عيّن مؤخرا مديرا عاما للتراث غير المادي على مستوى المنظمة أن فكرة هذا الملتقى جاءت أثناء لقاء المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم مع رئيس الجمهورية وأن عقده بمدينة تلمسان جاء باقتراح من مدير عام اليونسكو شخصيا (الملتقى الثالث يعقد ببجاية).

ومثلما كان منتظرا لم يحسم المشاركون الذين جاؤوا من دول عديدة عربية وإسلامية وأجنبية مسألة الخلاف القائم منذ القدم بين أنصار السماع. وهو النقطة الرئيسية في جدول أعماله والمناهضين له وسيبقى الخلاف على أشده، بسبب عدم وجود نص من القرآن أوالسنة يبيح أويحرّم هذا النوع من الذكر كما يسميه البعض.

وبعيدا عن هذا النزاع القائم أساسا بين الفقهاء والمتصوفة أو على الأقل بين فريق منهم، فإن الملتقى كان فرصة لأن يبحر المشاركون في محيط التصوف ويغوصون في أعماقه خاصة وأنه جمع بين متعة الإستماع إلى محاضرات بعضها على مستوى علمي كبير ومتعة الإستماع إلى الأناشيد والابتهالات والمدائح. وقد أبدعت إحدى الفرق الإيرانية وأجادت.

وكان الملتقى كذلك فرصة مكنت الباحثين من إبراز بعض القضايا وتسليط الضوء على بعضها الآخر. من ذلك أن أستاذا أمريكيا شابا أثبت في محاضرته عدم خضوع الزاوية التيجانية لفرنسا، وأنكر من خلال الوثائق التي قال أنها وجدها في زاوية عين ماض، تعامل أو تعاون التيجانية مع الاستعمار الفرنسي، مثلما هو شائع والشائع ليس بالضرورة صواب. وقال بنيامين كلود بروار (من جامعة تكساس- الولايات المتحدة الأمريكية) إن المؤرخين الشباب بدأوا يلقون بقراءة أخرى مختلفة للأحداث ومنها هذا الطعن في تعاون الزوايا مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر. والجديد الهام الذي ظهر خلال هذا الملتقى الدولي ما كشف عنه الأستاذ عبد الإله بن عرفة (جامعة الرباط- المغرب) الذي توصل إلى التعرف على أحد تلامذة أبي مدين شعيب الذي ظل مجهولا مدة طويلة وهو أبو جعفر أحمد بن سيد بونة الخزاعي الأندلسي الذي يرجع أصله إلى مدينة بونة (عنابة حاليا) وقد تعرف على هذا الشيخ الذي مازالت زاويته قائمة في المغرب من خلال

تحقيق كتابه "الشهاب موعظة لأولى الألباب" الذي حققه المؤلف ونشره في المغرب السنة الماضية.

إن الحاجة إلى حسن الاستفادة من مثل هذه الملتقيات تبقى قائمة وبالذات من ملتقيات علمية كهذا الملتقى. فرغم اعتبار سكان تلمسان أكثر اهتماما بالثقافة والموسيقى إلا أن قاعة المحاضرات (دار الثقافة) ظلت شبه فارغة طوال الجلسات الملتقى. كما غاب التنسيق بين مؤسسات الدولة، مما جعل أشغاله تعرف بعض الاضطراب في دعوة الأساتذة المحاضرين حيث كان مقررا أن تنظم جامعة الجزائر ملتقى مشابها الأمر الذي اظطرت معه إلى تأجيله إلى شهر يناير ثم الالغاء نهائيا.

وهناك ظاهرة إيجابية ملفتة للنظر وهي أن جل الأساتذة المحاضرين من خارج الجزائر، كانوا من الشباب وعند طرح السؤال لمعرفة السر الذي يكمن وراء اهتمام بعض الباحثين الغربيين الشباب بالتصوف وبالذات التصوف الإسلامي أجاب أحد العارفين أن الغرب يعيش خواء روحيا، وهو لذلك يبحث عن البديل دوما. بقي أن نذكر أن عددا من شيوخ الطرق الصوفية تابعوا أشغال الملتقى نذكر منهم :

1. الشيخ الجازولي شيخ الطريقة العيساوية (عين تموشنت).
2. الشيخ عبد اللطيف بلقايد شيخ الطريقة الهبرية (وهران).
3. الشيخ العيد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية تماسين.

4. الشيخ عبد الجبار التيجاني ممثل الخليفة العام للطريقة التيجانية.

5. الشيخ مأمون القاسمي شيخ الطريقة الرحمانية (الهامل).

6. الشيخ الرويسات ممثل الطريقة القادرية (الأغواط).

7. ابن طكوك شيخ الطريقة السنوسية (مستغانم).

8. وحضر ممثلون عن زوايا جنوب الوطن : أدرار، بشار، تامنراست، البيض، (الشيخية) النعامة، سعيدة.

أما على مستوى التنظيم، فلا بد من التنويه بالجهد الذي بذله المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، وهو الجهة التي أوكلت لها وزارة الثقافة مهمة تنظيم الملتقى والدعوة إليه وقد نجح في ذلك أيما نجاح.